الوطنية في تلاحق الأجيال

بقلم المرحوم الدكتور محمد زنيبر

في دراسة نقدية للكتاب الذي أصدره الأستاذ عبد الكريم غلاب تحت عنوان « تاريخ الحركة الوطنية » تعرض الناقد إلى تصنيف المؤلف للوطنيين، منهم « من ينظر إليه بعين الرضا » ، ومنهم « من يتكلم عنهم اضطرارا » ، ومنهم « من تجاهل أعمالهم » ، ومنهم « من تركهم للهوامش الدقيقة لأنهم في نظره لا يستحقون أكثر من تلك المنزلة » .

ومن بين الشباب الذين « ينتمون إلى الرعيل الأول في الوطنية ويعرفهم الخاص والعام في مجموع المغرب » ، وقع اختياره على شابين من بلدة سلا، وهما:

محمد حصار الذي « لم يستحق ولو التفاتة قصيرة ممن نصب نفسه « مؤرخا » للوطنية المغربية » ؛

وسعيد حجي الذي وقف منه المؤلف موقفا يبعث إلى التشكيك في وطنيته.

فلنقرأ ما كتبه الدكتور زنيبر في رده عن تجاهل المؤلف لمعطيات من تاريخ الحركة الوطنية يود طمسها:

« ... ما بال المؤلف يقف هذا الموقف؟ هل يرجع ذلك إلى كون محمد حصار كان شابا أم لكونه من بلدة سلا المتواضعة؟

سؤال ربما ازداد وضوحا بالمثال الذي يقدم لنا شابا آخر. كان هذا الشاب من ألمع الوطنيين وأذكاهم. ظهر في الفترة الواقعة بين 1930 و 1942 وهى السنة التي توفى فيها وهو لا يتجاوز الثلاثين. إنه سعيد حجي، وهذا الإسم كاف وحده لإثارة العديد من الذكريات المشرقة: ذكريات شاب يفيض حيوية ونشاطا، فتراه ينتقل من فكرة إلى فكرة

ومن مشروع إلى مشروع، ويقرن التفكير بالعمل، ويثير الاهتمام حواليه لدى أصدقائه وأقرانه بكل ما يشغله بحيث يتحول بيته أو مكتبه إلى ناد تتبارى فيه العقول. أسس مجلة بخط يده قبل أن توجد المجلات الوطنية، وما زالت بعض نسخها موجودة إلى اليوم، وشارك بفعالية في كل أنشطة الحركة الوطنية. واستطاع بمجهوده ووسائله الخاصة أن يؤسس جريدة يومية وطنية هى جريدة « المغرب » مع ملحقها الثقافي الذي تعد مجموعته، اليوم، سجلا مهما للأدب المغربي في تلك الفترة. هذا إلى جانب مشاركته الثقافية والأدبية، بصفة عامة، حيث ساهم في تعريف المغاربة آنذاك بالتطورات المهمة التي كانت جارية يومئذ بالحركة الأدبية في المشرق العربي.

ومن جهة أخرى، كان سعيد يشتمل على دماثة أخلاق ممزوجة بشيء من الدهاء والمزاج الدبلوماسي، مما جعل الوطنيين يضعون فيه ثقتهم للاتصال بالإقامة العامة حينما قرروا الدخول في سياسة المهادنة مع ظروف الحرب. واستطاع في اتصالاته أن يخلق مجالات للحوار مع سلطات الحماية في وقت كانت فيه الحركة تجتاز ظروفا جد صعبة دون أن ينسى خطة الحزب الوطني واستراتيجيته. فكان دوره من أصعب الأدوار.

وفوجئ الناس ذات يوم أن سعيد حجي مصاب بمرض عضال، وتناقلوا حكايات منها أن الاستعماريين تخوفوا من دهائه فدسوا له السم. وسواء صح ذلك أم لم يصح، فالذين عرفوا سعيد من قريب وسايروه في كل أطوار حياته، جربوا فيه الرجل المستقيم في وطنيته، المستنير في رأيه.

فكيف يأتي الأستاذ غلاب، اليوم، ليحاول أن يوقع في روعنا أن سعيد حجي خرج عن خطة الحزب الوطني، واضطر أن يقوم بمساع جديدة، منها السفر إلى جنيف لتبرير موقفه، والحالة أن الحزب قرر أن يسير في نفس الخطة التي ينعتها المؤلف في مكان آخر بأنها « نوع من التفكير العملي » واتصل وفد منه بالجنرال نوكيس معلنا عن « فتح عهد جديد بين الإدارة والوطنيين » . أى منطق يستعمل المؤلف في الحكم عن سلوك سعيد

حجي وفي التحدث عنه بلهجة لا تخلو من تشكيك حينما يقول: « ومع ذلك كان بعض المتحمسين لمحاولة سعيد حجي يظن أنها خففت المحنة عن بعض المعتقلين؟

هكذا، أصبحت وطنية سعيد وشخصيته توضع في « موضع الظن » ولربما التساؤل. وهذا موقف خاص بالمؤلف وحده، لأن رفقاء سعيد كانوا يضعون فيه كامل ثقتهم حيث جعلوه عضوا في جماعة « الطائفة » التي لم يدخل إليها إلا صفوة مختارة من المناضلين المخلصين. وما أظن أن المؤلف انتمى إليها. حقا، إن سعيد كان صاحب مبادرة وابتكار وتحرق إلى العمل الدائب حتى لا يكون فراغ ولا فتور في النضال الوطني. والركود الطويل الذي لاحظه في الحركة بعد 1937 هو الذي دفعه إلى التحرك بذكاء ومهارة وإلى البحث عن أسلوب جديد للعمل حتى لا يبقى الوطنيون غائبين عن الساحة.

فهل في هذا ما يبرر تلك اللهجة التي تحدث بها المؤلف عن الرجل والتي نفهم منها، تارة، أنه كان متطلعا، وطورا أنه كان فضوليا، وطورا أن عمله، حسب بعض الظنون، لربما كان فيه بعض الفائدة؟

كلا وألف كلا! فما طرحت شخصية سعيد بهاته الصورة على الذين عرفوه من قريب أو من بعيد. وما نظر إليه أحد بهذا التشكيك والتسائل. وهل أذكر المؤلف - وأظنه في حاجة إلى التذكير لأنه كان غائبا في ذلك الوقت ببلاد الكنانة على ضفاف النهر الخالد - أن وفاة سعيد كانت مأتما كبيرا في تاريخ الحركة الوطنية وأن من بين الذين وقفوا على قبره ليؤبنوه المرحومان محمد غازي وأبو بكر زنيبر والأستاذ أبو بكر القادري، وأن القاعة التي أقيمت فيها ذكراه الأربعينية غصت بالحضور الذي بلغ عددهم، حسب صحف الوقت، خمسمائة!

فما الذي يا ترى حدا « بالمؤرخ » أن يقف هذا الموقف من المرحوم سعيد حجي؟ هل له معه حساب خاص؟ ما أظن ذلك، هل يرجع ذلك لكون سعيد كان شابا أم لكونه من بلدة سلا المتواضعة؟